قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ ٱلْخُلْدِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۚ كَانَتْ لَهُمْ جَزَآءً وَمَصِيرًا ﴿١٦﴾ لَّهُمْ فِيهَا مَا يَشَآءُونَ خَٰلِدِينَ ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ وَعْدًا مَّسْـُٔولًا ﴿١٧﴾

التفسير: أي قل لهؤلاء الكافرين: هل مصيركم هذا أفضَلُ أم تلك الجنة التي وُعِد المتّقون والتي تكون لهم مصيرًا وجزاءً أوفى؟ إنهم سوف ينالون في تلك الجنة كل ما يشاؤون وسيعيشون فيها للأبد. وهذا وعد لهم من الله ولن يُخلَف أبدًا.

إن كل شخص عنده إلمام بسيط بتاريخ الإسلام يعرف كيف تحقق هذا الوعد بشكل رائع، وكيف أن الجزيرة العربية وبلاد فارس والروم والشام ومصر لم تستطع الصمود أمام صولة الإسلام، بل وقعت تحت سيطرته في سنوات قليلة. وكيف أن العمّال الكادحين صاروا ملوكا للعالم ببركة كونهم خدامًا لمحمد ﷺ. ثم تمكنوا من إقامة النظام الذي أراده الإسلام للعالم. لم يكن عبدة الأصنام في مكة يسمحون للمسلمين بعبادة الله علنا في أوائل الإسلام، فكانوا يصلّون خفية، ويتصل بعضهم ببعض سرًّا. لم تكن لهم حرّيّةٌ لتعلُّم الدين ونشره، بل لو جاء إلى مكة أحد ممن يبحث عن الحق لوجد صعوبة بالغة في الوصول إلى الرسول ﷺ، إذ كان الكافرون لا يدلّونه على بيته. ومع ذلك صار المسلمون حكاما وملوكا على العالم حتى خافت حكومات ودول كبيرة في العالم. فكان المسلم يفعل ما يشاء، ولم يكن بوسع أحد أن يحول دون إرادته. ذلك لأن المسلمين كانوا هم القوة الفعالة في ذلك الزمن وكان زمام الدنيا في أيديهم. ولكن المسلمين للأسف الشديد فقدوا هذه الجنة لسوء أعمالهم فيما بعد، وصاروا أذلاء مهانين. لقد ظنوا أنهم قد وُهبوا هذه الجنة للأبد لمجرد أنهم يدّعون أنهم مسلمون، مع أن الله تعالى حيثما وعدهم بالجنة جعل وعده مشروطا بالإيمان والعمل الصالح، بل لقد قال الله تعالى هنا أيضا ﴿كَانَ عَلَى رَبِّكَ وَعْدًا مَسْئُولاً﴾، مؤكدًا أنه مجرد وعد وهو مشروط

بإيمانكم وعملكم الصالح؛ فلو لم تكونوا مؤمنين و لم تعملوا الصالحات ألغيناه. وقد أكد الله هذا الأمر أيضا في قوله تعالى ﴿تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْرًا مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ﴾ فأوضح للمسلمين بقوله ﴿إِنْ شَاءَ﴾ أنهم سينالون هذه الجنات بلا ريب، ولكن لن ينالوها كحق لهم أو لن ينالوها بقوتهم، وإنما ينالونها وفق مشيئة الله تعالى، أي أنه تعالى إذا رأى أن أعمالهم جديرة بتلقّي هذا الإنعام فسينعم به عليهم. ولكنه إذا وجدها غير صالحة لتلقّي هذا الإنعام، فسينـــزعه منهم. وبالفعل ترى أن المسلمين ما داموا ثابتين على الإيمان والعمل الصالح، وهبهم الله نعمًا عظيمة، فحكموا العالم لقرون. ولكنهم لما نسوا حب الله تعالى وانغمسوا في الملذات، قطع الله صلته بهم وحرمهم من هذه الجنات.

فالشيء الأساس الذي يجب الاهتمام به هو الإيمان والعمل الصالح. ولو أن المسلمين غيّروا ما بأنفسهم اليوم وأطاعوا الله ورسوله حق الطاعة، لجعَلهم وارثين لهذه النعم مرةً أخرى كما ورثها المسلمون الأولون، وسيُدخلهم الجنة التي طُردوا منها بسبب عصيانهم.

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَقُولُ ءَأَنتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِى هَٰٓؤُلَآءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿١٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ مَا كَانَ يَنۢبَغِى لَنَآ أَن نَّتَّخِذَ مِن دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَآءَ وَلَٰكِن مَّتَّعْتَهُمْ وَءَابَآءَهُمْ حَتَّىٰ نَسُوا۟ ٱلذِّكْرَ وَكَانُوا۟ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٩﴾ فَقَدْ كَذَّبُوكُم بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفًا وَلَا نَصْرًا ۚ وَمَن يَظْلِم مِّنكُمْ نُذِقْهُ عَذَابًا كَبِيرًا ﴿٢٠﴾

شرح الكلمات:

بُورًا: البُور: الرجل الفاسد والهالك لا خير فيه. بلفظ واحد مع الجميع، يقال: امرأةٌ بُورٌ وقومٌ بورٌ (الأقرب).

التفسير: أي أن الكافرين عندما يُحشرون يوم القيامة مع آلهتهم سيسأل الله تعالى هذه الآلهة: أأنتم أضللتم عبادي أم أنهم قد ضلّوا بأنفسهم؟ فيقولون له: سبحانك يا رب، كيف يمكن أن نتّخذ أولياء وآلهة من دونك. لقد متّعتَ هؤلاء وآباءهم بنعم الدنيا وأموالها بكثرة حتى نسوا هديك وصاروا من الهالكين. فيقال للمشركين، لقد كذّبْتكم آلهتُكم فيما تقولون، فلن تنجوا من العذاب اليوم ولن تتلقوا أي نصرة من أحد. وتذكَّروا أن الظالم يعذَّب عذابا شديدا.

واعلم أن المراد من الآلهة الزائفة المذكورة في هذه الآية هو رسلُ الله الذين اتخذتهم أممهم فيما بعد شركاء لله بسبب جهلها، وأخذت تعبدهم. مثلما حصل مع المسيح الناصري عليه السلام، فبرغم أنه لم يزل طيلة عمره يسمي نفسه ابن الإنسان، ولكن المسيحيين جعلوه ابنًا لله تعالى، وعرضوا على العالم عقيدة ألوهيته.

كذلك الهندوس يعبدون "راما" و"كرشنا"، مع أن كليهما كانا من رسل الله الأطهار الذين بُعثوا في الهند لهداية الشعب الهندوسي. ويندرج في قائمة هؤلاء الآلهة المزعومة حضرة سيد عبد القادر الجيلاني – رحمه الله – حيث يتوسل إليه أهل الطريقة القادرية لحاجاتهم، ويظنون أنه كان يحيي الموتى، وقد أشاعوا بهذا الصدد خرافات سخيفة بين الجاهلين. فيقولون مثلا أن بعض مريديه أقام له مأدبة وطبخ له ديكا. ولما فرغ من الطعام جاءت إحدى جارات مريديه وقالت له: سيدي، إن مريدك قد أطعمك لحم ديكٍ لي جاء به إلى بيته فذبحه. قال لها لا تحزني، اجمعي عظام الديك. فجمعت العظام، فأخذها في يده وضغطها، فتحولت العظام ديكا يصيح. فأخذته المرأة ورجعت إلى بيتها مسرورة.

وكذلك يقولون أن أحد مريديه جاءه ذات يوم وقال: سيدي، إن ابني مريض، فادع له بالشفاء. فقال: سندعو وسوف يشفى. ولكن ابنه مات. فرجع إلى السيد

عبد القادر الجيلاني وقال له: سيدي لقد مات ابني! قال: هل مات؟ هل بلغت الجرأة بعزرائيل أنه بدأ يخالف أوامري؟ ثم أخذ عصاه وبدأ يصعد إلى السماء. فكان عزرائيل في الأمام والسيد عبد القادر وراءه حاملا عصاه، وأدركه قبيل دخوله في السماء، وضربه بعصاه، فأصيب عزرائيل في رجله وصار أعرج. وانتزع السيد عبد القادر منه كيس الأرواح التي قبضها في ذلك اليوم. وفتح فم الكيس، فعادت الحياة إلى جميع تلك الأرواح. فحضر عزرائيل إلى الله تعالى باكيا وقال: رب، قد ذهبتُ لأنفذ أوامرك، ولكن عبد القادر الجيلاني ضربني بالعصا، وانتزع مني كيس الأرواح، وحرّرها كلها. فماذا أفعل الآن؟ أرجوك أن تبعث غيري لهذه المهمة. وإنه لم يحرر مني روح ابن مريده فقط، بل أطلق جميع الأرواح التي قبضتها اليوم. فقال الله لعزرائيل: اسكُتْ، لو سمع عبد القادر قولك، فإنه سيحرر أرواح الأولين والآخرين كلهم، ولن أستطيع أن أفعل حياله شيئًا!

فالله تعالى يبين هنا أنه سيجمع كل هؤلاء الشركاء مع من يعبدهم، وإتمامًا للحجة على المجرمين سيسأل شركاءهم: هل أنتم علّمتموهم الشرك؟ فيقولون: سبحانك ربنا، ما يكون لنا أن نقول لهم ما ليس لنا بحق، إنما أمرناهم أن يعبدوك وحدك، ولكن طال عليهم الزمن، فنسوا ما علّمناهم، واتخذونا شركاء معك، مع أننا بريئون من عقائدهم هذه.

وهذا ما أكده المسيح الناصري عليه السلام أيضا في الإنجيل حيث قال:

"كثيرون سيقولون لي في ذلك اليوم: يا رب، يا رب، أليس باسمك تنبأنا؟ وباسمك أخرجنا شياطينَ؟ وباسمك صنعنا قواتٍ كثيرة؟ فحينئذ أصرح لهم: أني لم أعرفكم قط. اذهبوا عني يا فاعلي الإثم." (متى ٧: ٢٢-٢٣)

وكذلك ورد عن المسيح عليه السلام:

"واجتاز في مُدن وقُرى يعلّم ويسافر نحو أورشليم. فقال له واحد: يا سيدي، أقليل هم الذين يخلُصون؟ فقال لهم: اجتهِدوا أن تدخلوا من الباب الضيق، فإني أقول لكم: إن كثيرين سيطلبون أن يدخلوا ولا يقدرون. من بعد ما يكون ربُّ البيت قد قام وأغلق الباب، وابتدأتم تقفون خارجًا وتقرعون الباب قائلين: يا رب،

يا رب، افتح لنا، يجيب ويقول لكم: لا أعرفكم؛ من أين أنتم؟ حينئذ تبتدئون تقولون: أكَلْنا قُدّامك وشربنا، وعلّمتَ في شوارعنا. فيقول أقول لكم: لا أعرفكم من أين أنتم، تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم. هنالك يكون البكاء وصرير الأسنان" (لوقا ١٣: ٢٢-٢٨).

لقد أشار المسيح عليه السلام هنا إلى أن الذين يتّبعونه بالاسم فقط كثيرون، ولكن الذين ينالون النجاة قليلون. سأقول لهم يوم القيامة صراحة: أيها الآثمون، ابتعِدوا عني كلكم. أنا لا أعرفكم مطلقًا.

إذًا، فحين يكشف الآلهة الباطلة للمشركين حقيقة الأمر سينكشف عليهم بطلان عقائدهم، فيدركون أنهم قد ارتكبوا إثمًا عظيمًا بإشراكهم بالله تعالى.

لقد اتضح من هذه الآيات أن الأمم إذا طال عليهم الزمن وابتعدوا عن عصر أنبيائهم وانغمسوا في ملذات الدنيا ومتعها، تسربت إليهم مساوئ كثيرة بالتدريج، وأكبر هذه المفاسد خطأٌ عَقَديٌّ، حيث يُغالون في حبّ رسلهم الذين أتوا لهدايتهم ويشركونهم بالله تعالى. وهذا الشرك يكون علانية في بعض الأحيان، ومثاله ما فعل المسيحيون بالمسيح فقالوا إنه إله، وأخذوا يقولون بأزلية الإله الأب وأزلية الإله الابن وأزلية الروح القدس. وأحيانًا يتخذ الناس قبور صلحائهم مسجدًا وسيتوسلون إليهم ويدعونهم لحاجاتهم، وبالتالي يشركونهم بالله تعالى. ومثاله ما يفعل بعض المسلمين في هذه الأيام، حيث يعقدون أعراسًا سنوية على مقابر كبار صلحاء الأمة، وآلاف منهم يسجدون على قبورهم ويسألونهم حاجاتهم. كل هذه الأمور إشراك بالله تعالى وتثير غضبه. ولكن المؤمن الحق يتمسّك بتوحيد الله الخالص ويتجنب كل نوع من الأفكار والأعمال الوثنية.

وَمَآ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمۡ لَيَأۡكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمۡشُونَ فِي ٱلۡأَسۡوَاقِۗ وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً أَتَصۡبِرُونَۗ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرٗا ٢٠

التفسير: لقد بيّن الله تعالى هنا أن أنبياءه الذين يتخذهم الناس شركاء معه تعالى ليسوا في غنًى عن الحاجات البشرية. إنهم بحاجة للطعام والشرب مثلهم، ويمشون في الأسواق مثلهم، ويشترون حاجاتهم مثلهم. فما بال هؤلاء القوم يتخذون بشرًا مثلهم آلهة ويتوسلون إليهم ويدعونهم لحاجاتهم؟ وكأن الله تعالى يبيّن هنا أنه لا بد للإله أن يكون متصفا بصفة الصمدية، أي أن لا يكون محتاجًا لأحد بينما يكون الجميع محتاجين إليه. بينما كان جميع هذه الآلهة الباطلة بحاجة إلى الأكل والشرب وكانوا محتاجين إلى تعاون الآخرين من أجل أسباب معيشتهم. فهل من العقل أن يُتخذ هؤلاء شركاء مع الله تعالى مع أنهم جاؤوا بأجساد فانية، وقد افترسهم الموت بالفعل، وإن أحوالهم تدل أنهم كانوا بشرا مثل أناس آخرين. لا شك أنهم كانوا رسل الله تعالى، ولكن إشراكهم بالله تعالى إثم كبير.

إن أكبر فتنة في هذا العصر هي فتنة المسيحية حيث دفعتْ معظم أهل الدنيا إلى الشرك باعتبارها المسيحَ إلهًا. ولكن دراسة الإنجيل تكشف لنا بكل جلاء أن المسيح عليه السلام كان محتاجا إلى الطعام كغيره من البشر. فقد ورد في الإنجيل:

"أما يسوع فرجَع من الأردن ممتلئا من الروح القدس، وكان يُقتاد بالروح في البرية أربعين يوما يجرَّبُ من إبليس، ولم يأكل شيئا في تلك الأيام. ولما تـــمّتْ جاعَ أخيرًا". (لوقا ٤: ١-٢).

وبرغم أن المسيحيين قد كتبوا هنا على سبيل المبالغة أن المسيح عليه السلام لم يأكل شيئا أربعين يوما إلا أنه لا بد لهم من الاعتراف بأنه جاع بعد أربعين يومًا، وأراد أن يأكل شيئًا؛ الأمر الذي يدل على احتياجه.

ثم ورد: "وفي الغد لما خرجوا من بيت عَنْيا جاعَ، فنظَر شجرة تين من بعيد عليها ورق، وجاء لعله يجد فيها شيئًا. فلما جاء إليها لم يجد شيئًا إلا ورقًا لأنه لم يكن وقت التين. فأجاب يسوع وقال لها: لا يأكُلْ أحد منكِ ثمرًا بعدُ إلى الأبد. وكان تلاميذه يسمعون." (مرقس ١١: ١٢-١٤)

لقد ثبت من هذه الفقرة أيضا أن المسيح عليه السلام كان يشعر بالجوع كما يشعر به باقي البشر. فجاع ذات مرة، فلم يجد شيئا. فذهب إلى شجرة تين لعله يجد عليها ثمرا يأكله. ولكنه نسي لسوء حظه أن الموسم ليس موسم ثمر التين. فرجع من عندها وقد خاب ظنه. ولما كان يتأذى من شدة الجوع فغضب على خيبة أمله، ودعا على الشجرة بأن لا يأكل منها أحد في المستقبل.

إن هذه الواقعة أيضا تُبطل ألوهية المسيح عليه السلام لأنها لا تؤكد أنه كان يشعر بالجوع كغيره من البشر فقط، بل تثبت أيضا أنه كان لا يعلم الموسم الذي تثمر فيه شجرة التين، دَعْك أن يعلم الغيب. لو كان يعلم الغيب لما سارع إلى الشجرة في الأيام التي لا تحمل فيها أشجار التين ثمارا.

ثم لم يكن من المعقول أن يدعو على تلك الشجرة، لأن الخطأ كان خطأه لا خطأ الشجرة. إن المسيحيين يتشدقون كثيرا بأن الله عادل، ولكن عدل إلههم عجيب؛ فقد ارتكب الخطأ بنفسه ومع ذلك أخذ يدعو على الشجرة!

ثم ورد في الإنجيل: "وبينما هو متّكئ في البيت إذا عَشّارون وخُطاة كثيرون قد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه. فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه: لماذا يأكل معلِّمكم مع العشّارين والخُطاة؟" (متى ٩: ١٠-١١)

فترى أن هذه الفقرة أيضًا صريحة في أن المسيح كان يأكل الطعام.

ثم يقول المسيح عليه السلام عن نفسه: "جاء ابنُ الإنسان يأكل ويشرب، فيقولون: هو ذا إنسان أكولٌ وشرّيبُ خمرٍ محبٌّ للعشّارين والخُطاةِ. والحكمةُ تبرّرتْ من بَنيها." (متى ١١: ١٩)

كذلك ورد: "ولما كان المساء اتَّكأَ مع الاثني عشر. وفيما هم يأكلون قال: الحق أقول لكم: إن واحدًا منكم يسلِّمني. فحزنوا جدًّا، وابتدأ كلٌّ واحد منهم

يقول له: هل أنا هو يا ربُّ؟ فأجاب وقال: الذي يغمس يده معي في الصحفة هو يسلِّمني. إن ابن الإنسان ماضٍ كما هو مكتوب عنه، ولكن ويلٌ لذلك الرجل الذي به يسلَّم ابنُ الإنسان. كان خيرًا لذلك الرجل لو لم يولد. فأجاب يهوذا مُسلِّمُه وقال: هل أنا هو يا سيدي؟ قال له: أنتَ قلتَ. وفيما هم يأكلون أخَذ يسوعُ الخبزَ وبارك وكسّر وأعطى التلاميذ وقال: خُذوا كُلوا، هذا هو جسدي. وأخذ الكأسَ وشكر وأعطاهم قائلاً: اشربوا منها كلُّكم، لأن هذا هو دمي الذي للعهد الجديد الذي يُسفَك من أجل كثيرين لمغفرة الخطايا. وأقول لكم: إني من الآن لا أشرب من نتاج الكَرْمةِ هذا إلى ذلك اليوم حينما أشربه معكم جديدًا في ملكوت أبي". (متى ٢٦: ٢٠-٢٩)

هذه الفقرة أيضًا تدل دلالة واضحة على أن المسيح عليه السلام كان يأكل الطعام مع حواريه، بل في بعض الأحيان قد أكل هو وتلاميذه من إناء واحد.

كذلك ورد أن المسيح عليه السلام لما ظهر على تلاميذه بعد حادثة الصليب قال لهم: "أعندكم ههنا طعام؟ فناوَلوه جزءاً من سمك مشويّ وشيئًا من شهد عسل. فأخذ وأكل قدّامهم". (لوقا ٢٤: ٤١-٤٣)

لقد تبين من هذه الفقرات كلها أن المسيح عليه السلام كان يشعر بالجوع كما يشعر به سائر البشر، وكان يأكل الطعام كما كان يأكل تلاميذه وغيرهم من البشر. بل إنه سأل تلاميذه بعد حادثة الصليب أن يعطوه بعض الطعام، فقدّموا له قطعة سمك فأكل أمام تلاميذه.

ثم يخبرنا الإنجيل أن المسيح كان يمشي في الأسواق ويعلّم الناس دينهم. فبين لهم ذات مرة أن النجاة متوقفة على التضحية والعمل، فقال: "حينئذ تبتدئون وتقولون: أكلْنا قدّامك وشربنا، وعلّمتَ في شوارعنا، فيقول: أقول لكم: لا أعرفكم من أين أنتم. تباعدوا عني يا جميع فاعلي الظلم." (لوقا ١٣: ٢٦-٢٧)

كما ورد أيضًا: "وحيثما دخل إلى قرًى أو مُدن أو ضياع وضعوا المرضى في الأسواق وطلبوا إليه أن يلمِسوا ولو هُدْبَ ثوبِه. وكلُّ مَن لَمَسه شُفي"(مرقس٦: ٥٦)

إذًا، فإن المسيح عليه السلام الذي يُتخذ شريكًا مع الله تعالى في ألوهيته يؤكد الإنجيل أنه كان بحاجة إلى الأكل والشرب كغيره من البشر، وكان يمشي في الأسواق كغيره من البشر. ونفس الحال بالنسبة لجميع الأنبياء الآخرين. لم يُبعث نبي قط لم يكن بحاجة إلى الأكل والشرب. فكيف يجوز اعتبار أي واحد منهم إلهًا؟

كما أن هذه الآية ترد على قول الكافرين ضد الرسول ﷺ إذ قالوا ﴿مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ﴾، حيث بين الله تعالى أن جميع الأنبياء السابقين كانوا يأكلون ويشربون ويمشون في الأسواق، فكيف يصح اعتراضكم ضد محمد ﷺ؟ إنما يصح اعتراضكم لو وُجد في محمد ﷺ ما يخالف سنة الأنبياء والرسل السابقين، ولكنه ما دام سائرًا على نهجهم وسنتهم فاعتراضهم عليه دليل على أنهم لا يؤمنون بالأنبياء السابقين في الواقع.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً﴾.. أي على المسلمين أن لا يضيقوا ذرعًا من معارضة المعارضين ومطاعنهم، لأن الله تعالى يميز من خلال الابتلاءات بين الصحيح والزائف. ففي زمن الأنبياء يترك الأب ابنه عادة، والابن أباه، ويترك الزوج زوجته والزوجة زوجها، ويترك الأخ أخته والأخت أخاها، وهكذا يصبح بعضهم اختبارًا لبعض في دينهم. ثم إن هذا الاختبار لا ينحصر في العائلات فقط، بل كل القوم يمرّون بهذا الاختبار، ويصبح الكافرون ابتلاء للمؤمنين والمؤمنون للكافرين. فلما بُعث النبي ﷺ اختُبر الصحابة بسبب إيمانهم بنار من البلايا والمحن من جهة، ومن جهة أخرى قد كشفت هذه المعارضة عيوب المعارضين التي كانت خافية من قبل. فلولا بعثة النبي ﷺ لما تجلت على الدنيا محاسن أبي بكر وعمر وعثمان وعلي – رضوان الله عليهم أجمعين – كما لم تنكشف على الناس مثالب أبي جهل وعتبة وشيبة. إنما هو ذلك الاختبار الذي أظهر على الناس مواهب الصحابة، كما كشف عليهم ما كان عند الكافرين من مرض الجذام الروحاني. ولو لم يُبعث النبي ﷺ لقال الناس إن أبا الحكم كان سيدًا حكيمًا وداهية من دواهي مكة، وكان أبو بكر أحد التجار الأمناء الشرفاء من مكة، ولكن نيران المعارضة حوّلت الصحابة كالذهب الخالص، كما أزالت ما كان على الكافرين من

لمعان زائف، وأثبتت أنهم ليسوا ذهبًا خالصًا بل هم كالنحاس. إذًا، فكان الصحابة اختبارًا للكافرين، كما كان الكافرون اختبارًا للصحابة.

ثم يبين الله تعالى للمسلمين أنه لا بد لهم من أن يتمسكوا بالإيمان بصبر وثبات لكي تتجلى عظمتهم على الناس. يجب أن لا يخافوا الاختبارات فيظنوا أنها ستهلكهم لو استمرت على هذا المنوال. كلا، بل إن الله تعالى البصير يبصر أحوالهم كلها، ويعلم أنها لن تقضي عليهم، بل تزيدهم قوة على قوتهم. وهذا المعنى قد بينه حضرة الشيخ روم – رحمة الله عليه – في بيت شعر له هو:

هر بلا کین قوم را حق داده است

زیر آن گنج کرم بنهاده است

(مثنوي مولوي رومي ص ١١٣)

أي أن كل اختبار يأتي على الجماعات الإلهية ينطوي على كنز كبير من رحمة الله تعالى، ويزيدها قوة وازدهارًا.

فترى كيف صبّ رؤساء مكة على النبيّ ظلمًا عظيمًا، ولكن هذا الاضطهاد نفسه أحدث ثورة في أصحاب الطبائع السعيدة من أهل مكة، فوصلوا إلى باب محمد ﷺ سابحين في أنهار من الدماء، وانقادوا له في طاعة كاملة. ولولا الابتلاءات فلربما لم يخرج صوت الإسلام من حدود مكة، ولكن الابتلاءات تسببت في وصول صوته إلى كل شبر من الجزيرة العربية.

إذًا، فالابتلاءات أهم ركيزة للرقي القومي؛ إذ لم يأت نبي قط لم تمرّ جماعته بالاختبارات. بل يقول القرآن الكريم ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلاَ إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ﴾(البقرة:٢١٥).. أي قد أصابتهم المحن والشدائد حتى زُلزلوا كلية حتى خرّ الرسول وعباد الله المؤمنون كلهم ساجدين لله تعالى يدعونه ويسألونه متى ينـزل نصره؟ فاستجاب الله دعاءهم، فنـزل نصر الله من السماء وجعلهم غالبين.

فعلى المرء أن لا يخاف الابتلاءات، وإنما علينا أن نعتبرها من أهم دواعي رقي الجماعة وازدهارها، ونستنـــزل نصر الله وعونه تعالى بالبكاء والابتهال وبصالح الأعمال.

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُّسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

حجرًا محجورًا: حجَره: منَعه (الأقرب). وفي "المفردات" عن قوله تعالى ﴿حِجْرًا مَحْجُورًا﴾: "كان الرجل إذا لقي من يخاف يقول ذلك. فذكر تعالى أن الكفار إذا رأوا الملائكة قالوا ذلك ظنًّا أن ذلك ينفعهم."

هَباءً: الهباء: الغبارُ أو يشبهُ الدخانَ وهو ما ينبثُّ في ضوء الشمس؛ ودِقاقُ التراب ساطعةً ومنثورةً على وجه الأرض (الأقرب)

مَقيلاً: قال يقيل مَقيلا: نامَ في القائلة أي نصف النهار. وقال فلانٌ قَيلاً: شرِب في نصف النهار. (الأقرب)

والمقيل: موضع القيلولة. (المفردات)

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن الذين لا يرجون لقاءنا أو لا يخافون عقابنا وعذابنا يتصرفون بشكل غريب. فتارة يقولون: لماذا لا نرى الملائكة، وتارة أخرى

يقولون: لماذا لا نرى ربنا؟ إن هؤلاء الأغبياء لا يرون مدى سوئهم وخبثهم، ويتجاسرون على هذه المطالبات مستكبرين.

علمًا أن الرجاء يعني الأمل عادة، ولكنه يعني الخوف أيضًا. كما أن اللقاء يعني المقابلة والحرب أيضًا (انظر أقرب الموارد). وعليه فقوله تعالى ﴿الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾ يمكن أن يفسر بمفهومين؛ أي الذين لا يأملون لقاءنا، أو الذين لا يخافون عقابنا. ذلك أن من الناس من إذا أمّلتَه استعد للعمل بكل شوق ورغبة، ومنهم من لا يعمل إلا إذا خوّفتَه. وبالنظر إلى هذين النوعين من الناس قال الله تعالى هنا ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا﴾.. أي أن هؤلاء القوم لم ينتفعوا، للأسف، بما وعدناهم من جوائز وبركات، كما لم يغيّروا ما بأنفسهم خوفًا من تهديد العذاب، بل ظلّوا يقولون أن هذا الرسول إذا كان حقًا فلِمَ لم تنـــزل الملائكة علينا، أو لِمَ لم نحظ برؤية الله تعالى؟

لقد اختلف المفسرون في بيان معنى قوله تعالى ﴿لِقَاءَنَا﴾، فقال بعضهم إن معناه أنهم لا يكترثون لعذاب الله تعالى ولا يخافونه. وقال بعضهم معناه أنهم لا يأملون في رؤية البارئ، أو أنهم لا يرجون من الله جزاءً خيرًا (فتح البيان).

ولكن الحق أن اللقاء مرتبة روحانية يتبوءها من يتبع الإسلام حقًّا. أما رؤية البارئ فإنما المراد منها أن يحظى المرء بجلوة ربانية، وهو شيء مؤقت، بينما اللقاء اسم لمقام ثابت إذ يعني أن المرء قد وجد الله تعالى. ولذلك تُسمَّى الرؤية حالاً، واللقاءُ مقامًا ثابتًا في اصطلاح الصوفية. والحق أن هذا هو الشيء المميز بين الإسلام وغيره من الأديان. إن الديانات الأخرى إنما تَعدُ أتباعَها بوصال الله تعالى يوم القيامة، ولكن القرآن الكريم يرفض هذه النظرية معلنًا أن بإمكان الإنسان أن يتبوء مقام لقاء الله تعالى وهو في هذه الدنيا أيضًا، بل لقد ركز القرآن الكريم على ذلك تركيزًا شديدًا فقال ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾(الإسراء:٧٣).. أي أن الذي لم تتيسر له معرفة الله تعالى ولم يره بعيون قلبه في هذه الدنيا، فلن يستطيع رؤيته يوم القيامة كذلك، وسيكون أشد الناس ضلالا.

ويقول الله تعالى أيضًا ﴿كَلا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾(المطففين:١٦).. أي أن الكافرين سيُمنعون من أن يأتوا أمام الله تعالى، بمعنى أنهم لن يحظوا برؤيته إذ كانوا محرومين منها في الدنيا.

بينما يعلن القرآن الكريم عن المؤمنين ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ۝ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ (القيامة:٢٣-٢٤).. أي أن المؤمنين حين يحضرون عند ربهم تعلو وجوههم نضرة وبشاشة وجمال لأنهم يرون ربهم.

كما بين القرآن الكريم أهمية لقاء البارئ في الدنيا فقال ﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ۝ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾(يونس: ٨-٩).. أي أن الذين ليس عندهم لوعة للقاء الله تعالى، وإنما رضوا بالحياة الدنيا مطمئنين بها والذين هم غافلون عن آياتنا، سيكون مصيرهم جهنم.

لقد تبين من هنا أن القرآن الكريم يعدّ لقاء الله جوهر الروحانية ولب الإسلام، ويوضح أن الذين ينكرون لقاء الله تعالى ويقولون أن باب لقائه مسدود الآن، سنعاقبهم ونلقيهم في جهنم.

ولكن المؤسف أن المسلمين أيضًا قد أخذوا يقولون في هذا العصر أن باب كلام الله تعالى ووحيه مسدود الآن، ومن المحال الآن أن يوجد في أمة المصطفى ﷺ من يرتقي في الروحانية بحيث يكلّمه الله تعالى. مع أن هذه هي القضية الجوهرية التي تؤكد فضل الإسلام على الديانات الأخرى، أما القضايا الأخرى فيمكن لأهل الأديان الأخرى أن يقدموا شيئًا بصددها عند التحدي، كما فعل السحرة مع موسى عليه السلام حين ألقوا حبالهم عند المواجهة؛ فلا شك أن السحرة فشلوا وانهزموا، ولكنهم جاؤوا بشيء على الأقل. كذلك فإن أهل الديانات الأخرى يقدمون حول المسائل الأخرى شيئًا ضد الإسلام، وإن كان ما يقدمونه خطأ، ولكن فيما يتعلق بلقاء الله تعالى فليس بوسع أي دين أن يباري الإسلام في هذا المضمار. ذلك لأنهم لو ادعوا ذلك لم يجدوا بدًّا من الاعتراف بإمكانية لقاء الله تعالى في هذه الدنيا أيضًا، ولكنهم لا يستطيعون أن يقدّموا على ذلك مثالاً حيًّا من دينهم، وبالتالي لا

بد لهم من الاعتراف بفضل الإسلام الذي لا يدّعي بلقاء الله تعالى فحسب، بل يبرهن على ذلك بالأمثلة الحية. فهروبًا من الخزي والهوان يقول أهل الديانات الأخرى أنه من المستحيل أن يحظى أحد من ديانتهم أو من الإسلام بلقاء الله في الدنيا. إنهم لا يقولون إن لقاء الله تعالى ممكن في ديانتنا ومحال في ديانتكم، لأنهم يدركون أنهم لو ادعوا بذلك فلن يستطيعوا أن يبرهنوا عليه.

أما وكيف يتيسر لقاء الله تعالى للإنسان، فقد بين القرآن الكريم قاعدة أساسية بهذا الصدد فقال ﴿يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاقِيهِ﴾ (الانشقاق:٧).. أي أيها الإنسان، إن طريق لقاء الله تعالى مفتوح أمامك في كل حين بشرط أن تكدح لذلك. والكدح هو: "جهد النفس في العمل والكدُّ فيه حتى يؤثّر فيها" (الأقرب). وهكذا فقد أوضح الله تعالى أن على المرء أن لا يظن خطأً أن بوسعه إحراز الكمال في الروحانية بمجرد إيمانه، بل لا بد له من الكفاح المتواصل ولا مناص له من المرور بنيران التضحيات، وعندها ستتيسر له نعمة لقاء الله تعالى.

باختصار، إن الله تعالى قد بين في هذه الآيات أن أكبر سبب لجسارة الكافرين هو إنكارهم للقاء الله تعالى، إذ لا يوجد في قلوبهم الحب لله تعالى ولا الخوف من عذابه.

ثم ذكَر الله تعالى مطالبتهم بأنه إذا كان محمد (ﷺ) صادقًا فلمَ لا تنـــزل عليهم أيضًا ملائكة الله، أو لِمَ لا يرون ربهم بعيونهم. وقد سبق أن اعترضوا من قبل بأنه لو كان رسولاً حقًّا فكان ينبغي أن تكون له جنة مليئة بالفواكه والثمار كبرهان على صدق دعواه. وهذا يدل على أن الكافرين يرون أنه لا بد لمعرفة صدق أي نبي من أمرين اثنين: أن يكون عنده الغلبة المادية، وأن يأتي بأمور محيرة تتعارض مع سنة الله الجارية. وبما أنهم لم يروا هذين الأمرين في النبي ﷺ، إذ لم يجدوا عنده كنوزًا، ولم يروا منه شيئًا خارقًا لسنة الله الجارية ولا ما يفوق قدرة البشر، فكانوا يسخرون من دعواه. فردَّ الله تعالى على مطاعنهم بقوله ﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا﴾.. أي أنهم يظنون أن هذين الأمرين.. أي رؤية الله ونـــزول الملائكة.. أمرٌ مستحيل، وأنهم قد تمادوا في شرورهم، بمعنى أنهم

يقولون بأفواههم أن محمدًا (ﷺ) كذاب وعدوٌّ للقوم، ولكن الواقع أنهم يظنون في أنفسهم أنه من المستحيل أن يصل قومنا إلى المقام الذي يدعي محمد أنه سيأخذهم إليه. وبتعبير آخر، إنهم يقولون في الظاهر أنهم لا يعارضونه إلا لأنه خائن للشعب ولأنه يدعو إلى عبادة الإله الواحد بدلاً من عبادة آلهتنا، ولكن الواقع أنهم لا يعارضونه إلا لأنهم يظنون في قرارة أنفسهم أنهم يرون ما يدعيه محمد (ﷺ) أمرًا مستحيلاً، وبسبب هذا القنوط يعادونه، ولا يجدون في أنفسهم شجاعة لتقديم التضحيات التي يجب أن يقدموها معه.

أما مطالبتهم بأن تأتيهم أيضًا الملائكة فيقول الله تعالى إن عليهم أن يعلموا أن ملائكتنا لا تنـــزل إلا بالوحي أو بالعذاب للكافرين. أما الوحي فلا يستحقونه، وأما العذاب فإنه عندما يحل بهم فسيقولون ربنا اكشف عنا العذاب، أو سيحاولون الفرار منه عبثًا. وكأنه تعالى يعلن هنا أن نـــزول الملائكة لن ينفعهم، بل سيؤدي إلى هلاكهم ودمارهم. وليعلموا أن عذابنا لا يأتي بدون سبب؛ وسنُنـــزله بهم لأنهم يريدون القضاء على الحق، ولن نسمح لهم بذلك أبدًا. فكلما سعوا للهجوم على الحق والصدق سندمرهم تدميرًا، ونجعلهم هباء منثورًا، ونسحقهم سحقًا، حتى لن يقدر أصدقاؤهم وأعوانهم على جمع ذراتهم. وعلى النقيض سنبوّء المؤمنين أرفع المقامات وأسماها، وستكون أماكن قيلولتهم رائعة.. بمعنى أن ما ينجزونه في الصباح سيهيئ لهم راحة مريحة وقت الظهيرة، وأن ما يقدمونه من تضحيات ستؤدي إلى نـــزول بركات الله ونعمه عليهم وعلى أجيالهم لزمن طويل.

وَيَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلسَّمَآءُ بِٱلْغَمَـٰمِ وَنُزِّلَ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ تَنزِيلاً ﴿٢٥﴾ ٱلْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ ٱلْحَقُّ لِلرَّحْمَـٰنِ ۚ وَكَانَ يَوْمًا عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ عَسِيرًا ﴿٢٦﴾ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَـٰلَيْتَنِى ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلاً

﴿٢٨﴾ يَـٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٩﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِى ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَـٰنُ لِلْإِنسَـٰنِ خَذُولًا ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

خَذولاً: خذَله: ترَك نصرتَه وإعانتَه (الأقرب). فالخذول: من يترك صاحبه ولا ينصره.

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا تفصيل العذاب المقدر في السماء للكافرين؟ وبما أنهم قالوا من قبل لو أن هذا الرسول كان صادقًا فلم لا تنـــزل الملائكة علينا كما يزعم، فأجابهم الله تعالى هنا أنه سيأتي يوم تتنـــزل فيه الملائكة، ولكن ذلك اليوم لن يكون يوم فرحة لهم، بل يكون يوم ندامة وحسرة لهم، لأن الملائكة تنـــزل لإهلاكم. إنهم يقولون اليوم بكل جسارة أين الملائكة التي يتحدث عنها محمد (ﷺ) كل يوم؟ فلتنـــزل هذه الملائكة علينا أيضًا حتى نعلم أنه صادق فيما يقول؛ ولكنها إذا نـــزلت سيقولون بكل حسرة، ليتهم لم يطلع عليهم ذلك اليوم ويكونون في منجاة من تلك البلايا والآفات. فقال الله تعالى ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾.. أي سيأتي يوم تنشق السماء فيه. وانشقاق السماء يعني نـــزول العذاب ونـــزول الرحمة أيضًا. يقول الله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلا يُؤْمِنُونَ﴾(الأنبياء:٣١).. أي أما يفكّر الكافرون في أن السماوات والأرض كانتا مغلَقتين، فما كانت البركات الإلهية تنـــزل من السماء ولا كانت الطاقات الكامنة في الأرض تظهر، فشققناهما ببعثة محمد ﷺ، وأحيينا بوحينا كل شيء. فالمراد من انشقاق السماء هنا نـــزول مطر الرحمة الإلهية. بينما قال الله تعالى في موضع آخر ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ۞ أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا﴾(مريم:٩١-٩٢).. أي قرُب أن تنشق السماوات وتنشق الأرض وتتمزق الجبال لأن المسيحيين قد اتخذوا لله ولدًا. فانشقاق السماء هنا هو نـــزول البلايا والآفات والعذاب الشديد

من السماء. وانشقاق السماء في الآية التي هي قيد التفسير أيضًا يعني نـــزول عذاب الله تعالى، إذ يقول الله تعالى بعد ذلك فورًا ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾؛ فلو كان انشقاق السماء هنا نـــزول رحمة الله تعالى ما ذكر الله تعالى هنا فشل الكافرين وحسرتهم.

وأكبر علامات ذلك اليوم التي ذكرها الله تعالى هي أولاً: ظهور الغيوم أي نـــزول المطر الغزير، وثانيًا: نـــزول ملائكة الله بكثرة لعذاب الكافرين، وثالثًا: أن الحكومة يومئذ ستصبح لله تعالى، وأن الكافرين سيصرخون يومئذ لما يحل بهم من هلاك ودمار.

وبالفعل قد حل هذا العذاب بأهل مكة يوم بدر كما تؤكد الوقائع التاريخية، وقد سماه القرآن الكريم ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾(الأنفال:٤٢). فهو اليوم الذي أخرج الله تعالى فيه صناديد مكة إلى معركة بدر، وأهلكَهم على يد حفنة من المسلمين الضعفاء. فقد ورد أن النبي ﷺ لما علم أن رؤساء مكة مثل عتبة وشيبة وأبي جهل وعقبة بن المعيط وأمية بن خلف والنضر بن الحارث قد وصلوا إلى بدر، قال لأصحابه: "هذه مكةُ قد ألقتْ إليكم أفلاذَ كبدِها" (السيرة النبوية الجزء الثاني: رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب). وبلغ جيش الكافرين وادي بدر قبل المسلمين، فاختاروا لأنفسهم أرضًا صلبة مستوية ذات ماء وكلأ، فاضطر المسلمون للنـــزول في أرض رملية لم يوجد فيها ماء ولا كلأ للمواشي. وقد اختار الكافرون لأنفسهم أرضًا صلبة ليسهل عليهم التحرك خلال المعركة، وتركوا للمسلمين أرضًا رملية لتغوص أقدامهم في الرمال أثناء الحرب، فيصعب عليهم القتال. ولكن الله تعالى الذي كان أنبأ من قبل وقال ﴿وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ﴾ قلَب الوضع بالليل تمامًا حيث هطلت أمطار غزيرة، فجمع المسلمون الماء في الحفر، وأكبر ما نفعهم المطر هو أنه حوّل الأرض الرملية صلبة متماسكة، وصيّر الميدان الصلب الذي اختاره الكافرون زلقًا، فصعب عليهم وعلى خيلهم الثبات عليه بسهولة أثناء القتال.

ثم إن الله تعالى أنـــزل ملائكته لنصرة المسلمين حسبما أنبأ به النبي ﷺ بوحيه من قبل حيث قال ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ

الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾(الأنفال:١٠).. أي تذكروا ذلك الوقت الذي كنتم تدعون الله تعالى بإلحاح أن ينصركم من السماء، فاستجاب دعاءكم وبشّركم بأنه سيؤيدكم بألف من الملائكة التي تأتيكم فوجًا بعد فوج. ولما كان عدد جيش الكافرين أيضًا ألف مقاتل، بشّر الله تعالى المسلمين بنـــزول ألف ملَك. ويبدو من هذا العدد أن هذه الملائكة كانت تلك التي تكون مع البشر في كل وقت. فلما تمت المواجهة بين أصحاب النبي ﷺ الذين كان عددهم ٣١٣ فقط ولم تكن عندهم عدة وعتاد وخبرة قتالية، ألقى الله تعالى في قلب كل كافر الرعبَ بأنه سيُقتل في هذه الحرب. بل إن بعض الكافرين قد رأوا هؤلاء الملائكة بالفعل كما ورد في بعض الروايات. ذلك أنهم لما فروا من القتال ورماهم الناس بالجبن، قالوا: وما يدريكم ما الذي حدث معنا؟ لقد رأينا في القتال محاربين غريبين راكبين متون خيول بيضاء بَلْقاء، وكانت بأيديهم السيوف، وكلٌّ من ضربوه صار قطعتين. فلم نحارب أناسًا بل حاربنا جنًّا. إذًا، فقد هُزم الكفار رغم كثرة العدد والعتاد بسبب هذا التأييد الذي نـــزل للمسلمين على شكل الملائكة.

ثم إن الملائكة قد نـــزلت بشكل آخر أيضًا، وهو أنه لما بدأ القتال خرّ النبي ﷺ ساجدًا على عتبة الله تعالى يدعوه ويبتهل إليه. وبعد دعاء طويل رفع رأسه من السجود وخرج من خيمته وحثا حثوة من الرمل والأحجار ورماها إلى الكافرين بقوة وقال في حماس شديد: "شاهتِ الوجوهُ".. أي اسودت وجوه الأعداء. ثم أمر المسلمين بشن الهجوم دفعة واحدة. وبمجرد أن رمى النبي هذه الحثوة من التراب أخذت الرياح تجري بشدة بأمر الله تعالى فدخلت الرمال في أعين الكفار وأفواههم، فلاذوا بالفرار، وخلت ساحة القتال في وقت قصير جدًا. ولما رآهم النبي ﷺ هاربين قال: إنه كان جيشًا من الملائكة التي أنـــزلها الله تعالى لنصرتنا. (البخاري: كتاب المغازي، واقعات بدر، والسيرة النبوية الجزء الثاني: غزوة بدر).

وقد أشار القرآن الكريم في موضع منه إلى هذه الآية التي أظهرها الله تعالى عندها فقال ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾(الأنفال:١٨).. أي يا محمد، لما رميتَ حثوة من الرمال والأحجار ناحية الكافرين فلم تَرْمِها أنت بل نحن رميناها.

وأما الصحابة فقال الله تعالى عنهم ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ﴾(الأنفال:١٨).. أي لا شك أن أيديكم وسيوفكم هي التي قتلت الكافرين في الظاهر، ولكنكم تعلمون، كما يعلم الناس أيضًا، أنكم لم تكونوا قادرين على الصمود أمام ذلك الجيش الكبير، إذ كنتم أقل منهم قوةً وعتادًا وخبرة، ومع ذلك انتصرتم عليهم، حتى قتلتم كبار قوادهم. وما كان ذلك إلا لأن نصرة الله تعالى كانت تساندكم، ولأن فوجًا من الملائكة كان يؤيدكم.

ثم يقول الله تعالى بعد ذلك ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ﴾.. أي عندها سيُرى المُلك بالفعل في يد الله الرحمن، إذ سيتحقق في ذلك اليوم ما أنبأ الله به قبل سنوات عديدة في مكة حين قال ﴿كَلا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ۝ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾(العلق:١٦-١٧).. أي أن الكافرين إذا لم ينتهوا عن عداء الإسلام، وظلوا يضطهدون ويجرّون في شوارع مكة أصحابَ الرسول (ﷺ).. الذين تظل جباههم ساجدة على العتبة الربانية كل حين، فليعلم هؤلاء الكافرون أننا أيضًا سنجرّهم من نواصيهم الكاذبة الخاطئة بكل شدة. وبالفعل لما قُتل أبو جهل وغيره من صناديد قريش في معركة بدر على يد المسلمين شر قتلة، أُخذوا من نواصيهم وأُلقوا في قليب بدر، وصار عَبَدةُ اللات ومناة وهُبل هدفًا لسيف الغضب الإلهي.

ثم يقول الله تعالى ﴿وَكَانَ يَوْمًا عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيرًا﴾. وبالفعل ترى أنه قد قُتل عتبة وشيبة والوليد بيد حمزة وعلي - رضي الله عنهما - ووقعوا صرعى في ميدان بدر مضرجين بالدماء حتى قبل أن تبدأ المعركة الحقيقية. وبعد أن انتهت الحرب هرب الكافرون تاركين وراءهم أبا جهل الذي قال بكل حسرة: "لو غيرُ أَكَّارٍ قتَلني" (البخاري، كتاب المغازي: باب شهود الملائكة بدرًا).. أي ليتني لم يقتلني فلاحٌ. ذلك لأن اثنين من أولاد الأنصار قد انقضّا على أبي جهل بمجرد أن بدأت الحرب، فألقياه جريحًا. ولما كان أهل مكة يحتقرون الأنصار لكونهم أهل زراعة وباعة فواكه وخضار، فلذا قال أبو جهل بكل حسرة: ليت شخصًا معززًا قتله. ولم يقتلني ولدانِ للفلاحين!

إذًا، ما حدث بالكفار كان كارثة كبيرة أرغمت أنوفهم وكسرت كبرياءهم. كما كان هذا تحقيقًا جليًّا لنبوءة لإشعياء النبي حيث ورد:

"وَحْيٌ من جهة بلاد العرب. في الوَعر في بلاد العرب تَبيتينَ يا قوافلَ الدَّدَانيّين. هاتُوا الماءَ لملاقاة العطشان يا سكَانَ أرضِ تَيماءَ، وافُوا الهاربَ بخُبْزِه، فإنهم من أمام السيوف قد هربوا، من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لي السيدُ: في مُدّة سَنة كسَنة الأجيرِ يفنى كلُّ مجد قيدارَ، وبقيةُ عددِ قَسيِّ أبطالِ بني قيدارَ تَقلُّ، لأنَّ الربَ إلهَ إسرائيل قد تكلَّمَ". (إشعياء ٢١: ١٣-١٧)

الواقع أن إشعياء النبي قد أنبأ هنا عن غزوة بدر حيث قال إنه بعد انقضاء سنة واحدة بعد الهجرة إلى المدينة ستنشب حرب في العرب تقضي على كل شوكة لقيدار وعظمتهم، فيولّون الدبر من ساحة القتال. وهذا ما حدث بالفعل، حيث لاذ الكافرون بالفرار تاركين وراءهم جثث كبار رؤسائهم واستولى رعب المسلمين على كل العرب.

ثم بعد ذلك يذكر الله تعالى أسباب هذا الدمار، مبينًا أن الإنسان يهلك بسبب أصحابه. إنه يتفاخر بأصدقائه دائمًا، ولكن حين تواجهه مصيبة يقول ﴿يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً ۞ لَقَدْ أَضَلَّنِي﴾. ومن أجل ذلك يوصي الله تعالى المؤمنين خاصة ويقول ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة:١١٩). والحق أنه لمن المستحيل أن يعيش الإنسان بدون أن يتأثر فيمن حوله. فلو اختار للصداقة أناسًا ذوي أخلاق حميدة وذوي طموحات سامية فلا بد أن يسعى هو الآخر لتدارك أخطائه ويتحلى بالتدريج بالأخلاق الفاضلة، ولكنه لو اختار لصداقته أناسًا سيئين فلن يأخذوه إلى الطريق السوي، بل سيدفعونه إلى انحطاط خلقي.

كان هناك طالب في الكلية الحكومية بمدينة لاهور، وكان من أتباع الديانة السيخية، ولكنه كان يكن الاحترام والحب لسيدنا المسيح الموعود عليه السلام. فأرسل إلى حضرته ذات مرة أنه كان مؤمنًا بالله إيمانًا راسخًا، ولكنه منذ فترة بدأت الشكوك تساوره حول وجود الله تعالى، فطلب من حضرته عليه السلام الدعاء ليزيل الله

تعالى تلك الوساوس والشبهات. فأرسل إليه سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وقال: يبدو أن بعض أصحابك يحمل أفكارًا ملحدة، وهي التي تولد فيك هذه الشبهات. فعليك أن تغير مكانك في الصف. فغيّر مكانه. فتخلص من تلك الوساوس بعد فترة تلقائيًا. (حقائق الفرقان مجلد ٣ ص ٣٢٠)

من هنا يمكن أن يقدر المرء مدى التأثير الضار الذي يتركه على المرء أصدقاؤه سيئو السيرة. ولذلك كان الرسول ﷺ يكثر من الاستغفار إذا جلس في مجلس حتى لا يتأثر قلبه المطهَّر من أي تيار فكري سيء.

ثم يذكر الله تعالى أن الكافر سيقول ﴿لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي﴾. والمراد من ﴿الذِّكْرِ﴾ هنا القرآن الكريم، لأن الله تعالى قد أنـــزله لكي يعمل به الناس. كما أن الله تعالى قد سمى القرآن الكريم ﴿الذِّكْرَ﴾ حيث قال تعالى ﴿إِنَّا نَحْنُ نـــزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾(الحجر:١٠)، وأيضًا قال تعالى ﴿وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنـــزلْنَاهُ أَفَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾(الأنبياء:٥١).. أي أن هذا القرآن صحيفة نصحٍ وتذكيرٍ قد جمَع مزايا الصحف السابقة كلها، وأننا قد أنـــزلناه لحكم معينة، أفأنتم تنكرون هذا الكتاب العظيم؟ وأيضًا قال الله تعالى أيضًا ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ﴾(الزخرف:٤٥).. أي أن القرآن الكريم مدعاة شرف لك ولقومك، بمعنى أن الذين يعملون به سيكتب الله تعالى لهم عزًّا وشرفًا. وأيضًا قال الله تعالى في موضع آخر ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ ۞ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنـــزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾(فُصّلت:٤٢-٤٣).. أي أن الذين كفروا بالقرآن الكريم، مع أنه كتاب معزز جدًّا، إنما يرتكبون الانتحار. إنه الكتاب الذي لا يمكن أن يهاجمه الباطل من أمامه ولا من خلفه، وأنه قد نـــزل من عند الله ذي الحكمة العظيمة والمحامد الكثيرة. فمن أعرض عن هذا الكتاب العظيم المبارك الذي هو مدعاة لشرف الإنسانية والذي لم تقدر العلوم السابقة ولا المعارف الحديثة على إبطال أي شيء منه، فلا شك أنه يهلك نفسه بيده. لقد أنـــزل الله تعالى هذا الكتاب ليقرأه الناس ويتعلموه ويعلّموه أهلهم وأولادهم، ثم ينشروا علومه في العالم باستمرار حتى يقوم ملكوت الله في كل شبر من الأرض،

ويصل اسمه ورسالته ﷺ إلى الأسود والأحمر. إن الذين يتخذون هذا الكتاب دستورًا للعمل سينالون العزة في الدنيا، ويرثون أفضال الله تعالى في الآخرة. أما الذين يرمونه وراء ظهورهم سيلعنون عند حلول العذاب أصدقاءهم وزملاءهم السوء الذين أضلوهم؛ ولكن لن ينفعهم عندها الندم ولا الأسف، ولن ينقذهم لعنُهم على الأصدقاء من العذاب، لأنهم هم المسؤولون عن مآلهم لا غيرهم.

وَقَالَ ٱلرَّسُولُ يَـٰرَبِّ إِنَّ قَوْمِى ٱتَّخَذُوا۟ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانَ مَهْجُورًا ﴿٣٠﴾

شرح الكلمات:

مهجورا: هجَره: أعرض عنه (الأقرب). والهَجر والهجران مفارقةُ الإنسان غيرَه إما بالبدن أو باللسان أو بالقلب، وقوله تعالى ﴿إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾ فهذا هجرٌ بالقلب (المفردات).

التفسير: أي سيقول الرسول ﷺ يوم القيامة متأسفًا: يا رب إن قومي قد تركوا هذا القرآن كلية، وألقوه وراء ظهورهم.

إنها كلمة وجيزة، ولكنها مليئة بالألم وكلما قرأتها ارتعد قلبي هولاً. فترى أن النبي ﷺ لا يقول هنا: "يا رب، إن قومي اتخذوا القرآن مهجورًا"، بل يقول ﴿يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾. فكلمة ﴿هَذَا﴾ تدل على شدة حزنه وبالغ أسفه ﷺ حيث يقول: رب، لقد أعطيتَ قومي كتابًا عظيمًا مباركًا منقطع النظير، ولكن قومي تركوا هذا الكتاب العظيم أيضًا. الناس لا يتركون قرشًا واحدًا، ولكنهم تركوا هذا القرآن وأعرضوا عنه، مع أن متاع الدنيا كله لا يساوي أمام هذا القرآن شيئًا.

واعلم أنه مما لا شك فيه أن المراد من ﴿قَوْمِي﴾ هنا أولئك القوم الذين لم يصدّقوا النبي ﷺ زمن بعثته، ولكن هذه الكلمة تشمل أيضًا مسلمي هذا العصر الذين تركوا العمل بالقرآن كلية، رغم انتمائهم إلى أمته ﷺ. إن هذا القرآن الذي جاء لهدايتهم، والذي قال الله تعالى عنه إنه أنـــزله ليأخذهم إلى الدرجات العلى،

فإنهم يستعملونه بطريق مشين جدًّا، حيث لا يسمع أحدهم ولا يقرأ كلمة واحدة من القرآن في حياته، ولكنهم يُسمعونه القرآن إذا مات. مع أنه لن يُسأل بعد الموت كم مرة ختم الناس القرآن على قبرك، إنما يُسأل: هل عملتَ بهذا القرآن أم لا؟

ومن استعمالاتهم المشينة للقرآن الكريم أنهم يحلفون به كذبًا ليأكلوا أموال الناس ويهضموا حقوقهم.

ومن سوء استعمالهم للقرآن الكريم ما يفعله بعض المشايخ. فإنه إذا مات أحد الناس يحضر أهله بالمصحف إلى جماعة من المشايخ الذين قد حضروا في بيته وجلسوا في شكل حلقة، فيأخذ أحدهم المصحف ويناوله للآخر قائلاً للميت: لقد وهبتُ لك هذا القرآن. وهم يظنون أن هذا سيؤدي إلى سقوط ذنوب الميت وغفرانه! والحق أن هذا لا يحط أي ذنب من ذنوب الميت، وإنما يحبط إيمان هؤلاء المشايخ وأقارب الميت.

ومن استعمالاتهم السخيفة للقرآن الكريم أن بعض المشايخ يشتري المصاحف من السوق بثمن رخيص، ثم إذا أتاه أقارب الميت لشراء المصاحف للقيام بالبدعة التي قد أشرتُ إليها أعلاه، يطالبهم بسعر عال جدًا، فيقولون له: ليس المصحف غاليًا لهذا الحد، فيقول له الشيخ: هل يمكن أن يُشترى القرآن بثمن قليل؛ ألم تعلم أن الله تعالى قد نهى عن ذلك في قوله ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾(البقرة:٤٢)؛ فكيف يمكن أن نأخذ ثمنًا قليلاً للقرآن الكريم. ولكن هذا الشيخ الجاهل لا يعلم أن القرآن الكريم قد صرح وقال ﴿مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ﴾(النساء:٧٨)، فكيف يجوز بيع القرآن الكريم مقابل مال الدنيا ومتاعها؟ الواقع أن قوله تعالى ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ إنما يعني أن لا تشتروا بآياتي متاع الدنيا، وليس المراد أن لا تأخذوا ثمنًا قليلاً عند بيع المصاحف.

ومن استعمالاتهم السخيفة للقرآن الكريم أنهم يغلّفونه في غلاف ثمين جميل، ثم يعلّقونه على الجدار في البيت. أو يعلّقونه في العنق لكي يظن الناس أنهم من أهل الصلاح والورع حيث لا يفارقه القرآن في أي وقت.

مجمل القول إن ما تراه اليوم من الوضع ينطبق عليه قول البعض: "لقد أصبح المسلم في القبر والإسلام في الكتاب فقط." فآثار الإسلام موجودة في القرآن الكريم وكتب الأحاديث الصحيحة أو كتب الأئمة، ولكنها لا توجد في حياة المسلمين. فإن ٧٥ % منهم لا يصلّون. أما الزكاة فلا يؤديها إلا قليلون منهم؛ وهؤلاء القلة أيضًا لا يؤدونها عن طيب خاطر إلا اثنين بالمئة منهم. ثم لا يحجون إذا وجب عليهم الحج. أما الذين ليس الحج فرضًا عليهم، أو لا يجوز لهم أن يحجوا لبعض الظروف، فيذهبون هناك للحج ليهينوا أنفسهم ويفضحوا الإسلام أيضًا. أما معاني الصلاة فلا يعلمها ربما أكثر من أربعة بالمئة من المسلمين خارج البلاد الناطقة بالعربية. وهذه الصلاة التي يؤدونها بدون فهم وإدراك لمعانيها فأيضًا يؤدونها في عجلة بحيث لا يستطيع المرء أن يميز بين سجودهم وركوعهم. ويعتبرون دعاء المرء بلسانه في الصلاة كفرًا. أما الصيام فكثير منهم لا يصومون بتاتًا. ومن صام منهم لا يمتنع عن قول الزور والغيبة وبالتالي يجعل صومه سببًا للعذاب بدلاً من الثواب. لقد نسوا أحكام الإرث تمامًا. وأما الربا الذي عدّه الله تعالى حربًا ضده، فقد احتالوا في تعريفة بمساندة المشايخ وبشتى الحيل والأعذار بحيث ربما لا يوجد أحد منهم لا يتورط في التعامل الربوي. أما الأخلاق الفاضلة التي كانت تُعتبر في الماضي إرثًا وحقًّا للمسلم، فقد تباعد عنها المسلمون كبُعد الكفر عن الإسلام. كان قول المسلم في الماضي يُعَدُّ كتابةً لا تتبدل، وكان وعُده قانونًا لا يتغير، أما اليوم فلا شيء هو أكثر زورًا من قول المسلم، ولا شيء هو أكثر زيفًا من وعده.

ولم يحل هذا الدمار بالمسلمين في أعمالهم وعقائدهم إلا لأنهم تركوا القرآن الكريم ولا يعملون به. ولو أنهم عملوا بالقرآن الكريم لصاروا كالصحابة غالبين على العالم كله، ولما بقي في الدنيا أثر للكفر والشيطان.

لقد نصحتُ أفراد جماعتنا مرارًا وتكرارًا بعقد دروس القرآن في كل فرع من فروعها بدون انقطاع، ولكنهم، للأسف الشديد، لم يهتموا بذلك كما ينبغي، مع أن في القرآن الكريم بركات كثيرة حتى إن الرسول ﷺ سيشكو إلى الله تعالى يوم القيامة، ويقول: يا رب كيف آسى على قومي الذين قد بلّغتُهم رسالتك المفعمة

بالحب، ولكنهم عوضًا عن أن يفرحوا ويبتهجوا ويكونوا شاكرين لك، ويهتز كل وتر من أوتار قلوبهم، وتنحني رؤوسهم لدى سماع هذه البشرى حبًا وإخلاصًا، قد ﴿اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا﴾، وقالوا لا حاجة بنا إليه! لا جرم أن الدنيا العمياء لا تزال تعامل رسالة الله تعالى هكذا، لأنها لا تعرف عظمة الله وعظمة رسوله، فلتفعل ما تشاء؛ وإنما أسأل المؤمن الذي يؤمن بأن الله موجود، ويعرف أن كلام الله عظيم، ويدرك أن كلامه مع العبد سواء بطريق مباشر أو غير مباشر لنعمةٌ عظيمة، كيف لا يلبي نداء الله تعالى حين يسمع كلامه، وكيف لا يتولد في قلبه شوق وحماس للعمل برسالته تعالى؛ مع أن كل كلمة وكل لفظ وكل حرف من القرآن الكريم من باء ﴿بِسْمِ اللهِ﴾ إلى سين ﴿وَالنَّاسِ﴾ ينطوي على رسالة الله تعالى إلى الناس، وهو يبلغ من القوة بحيث لو أن المسلمين استجابوا لرسالة الله تعالى وفتحوا قلوبهم لطاعته، لتحسنت دنياهم الآن أيضًا.

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ ٱلْمُجْرِمِينَ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا ﴿٣١﴾

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أن معارضة النبي ﷺ ليست بأمر غريب، إذ لم يأت في الدنيا نبي قط لم يتعرض لمعارضة و لم يدخر أعداؤه وسعًا في القضاء عليه، ولكن التاريخ شاهد على أنه لم ينجح إلا النبي وأتباعه رغم معارضة المعارضين، أما أعداؤهم فهلكوا وبادوا مهما بلغوا من القوة والشوكة. وهذه قاعدة كلية لا نجد فيها أي استثناء في العالم. فلا يمكن لأحد أن يقول أن آدم لم ينتصر على أعدائه، أو أن نوحًا لم ينجح ضد خصومه، أو أن إبراهيم لم ينجح في مهمته، أو أن موسى لم يتغلب على أعدائه، أو أن عيسى لم ينتصر على اليهود، أو أن محمدًا ﷺ لم يكن غالبًا على خصومه. لقد هجم الشيطان على الجماعات الإلهية في عصر كل واحد من هؤلاء الأنبياء بكل ما أوتي من قوه وعتاد، وحاول محو الحق بكل طريق شرير،

ولكن لم يحدث قط أن هُزم أيٌّ من هؤلاء وانتصر الشيطان. لا شك أن الأعداء قد هددوا أنبياءهم وقالوا ﴿لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا﴾(إبراهيم:١٤)، حتى قيل لهم ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾(يس:١٩)، ولكن رغم هذا التهديد، بل ورغم تنفيذ هذا التهديد، لم تر الدنيا إلا مشهدًا واحدًا دائمًا، وهو أنها وجدت الكفر ملقًى على الأرض والحق واقف بجانبه يبستم منتصرًا.

والواقع أن معارضة الأنبياء هي من أهم الوسائل الخفية التي يوسع الله تعالى بها نطاق رسالته. فعندما تهبّ عاصفة المعارضة تقع بين الناس هزة، فيقول أصحاب الفطرة الطاهرة في أنفسهم: ماذا يقول صاحب هذه الدعوة، ولماذا يلقى المعارضة؟ وعندما يتحرون الأمر يشرح الله تعالى صدروهم لقبول الحق، فيؤمنون به. فثبت أن المعارضة وسيلة قوية لإيصال صوت الأنبياء إلى آذان القوم. والمتنبئون الكذابون يكونون محرومين تمامًا من هذه الوسيلة. لا شك أنهم أيضًا يدّعون دعاوي غريبة، ولكن الناس لا يكترثون لهم، بل يعتبرون دعواهم ضربًا من الجنون فحسب. إن هؤلاء المفترين يتمنون أحيانًا أن يعارضهم الناس حتى يتحدث عنهم كل صغير وكبير ويذيع صيتهم بين القوم، ولكن لا أحد يلتفت إليهم، فيعيشون في زاوية الخمول ويموتون في زاوية الخمول. ولكن الله تعالى إذا بعث أحدًا من عنده انبرى لمعارضته كل القوم صغيرهم وكبيرهم وذكرهم وأنثاهم وقويهم وضعيفهم، وكل واحد من القوم يطلق إليه سهامه ظنًا منه أنه يعمل عملاً يثاب عليه، ولكن هذه المعارضة نفسها تهز ذوي الفطرة السعيدة في الأخير هزًّا، وتوصلهم إلى باب الله تعالى. ألم تر أن المعارضة الشديدة من قِبل أهل مكة هي التي نشرت الإسلام في الحبشة. وهي التي أوصلت رسالة الإسلام إلى المدينة المنورة. وهي التي دفعت أولاد كبار أعداء الإسلام من مكة وإخوانهم وأقاربهم إلى أحضان الإسلام، فأخذوا يفدون الرسول ﷺ بأرواحهم. وبرغم أن المكيين قد اتخذوهم عرضة لصنوف التعذيب، حتى جرّوهم على أرض ذات أحجار، وألقوهم في الرمال المحرقة في الشمس، وكبلّوا أيدي المسلمين وأرجلهم بالأصفاد، وأخرجوهم من ديارهم

وأوطانهم، وقتلوا المسلمات طعنًا في فروجهن، وقتلوا بعض المسلمين بربط إحدى رجليه ببعير ورجله الأخرى ببعير آخر، ثم ساقوهما في جهتين متعاكستين، ومع ذلك ظل هؤلاء القوم هائمين حول الرسول ﷺ كالفراش ويضحّون بأرواحهم من أجله ﷺ.

فرغم أن الشيطان عدو للحق منذ الأزل، ويسعى جاهدًا للقضاء عليه، ولكنه يصبح وسيلة لانتشار الحق في واقع الأمر، ويتسبب في وصول التائهين في الضلال إلى العتبة الإلهية. ولذلك عزا الله تعالى هذا التدبير إلى نفسه فقال ﴿جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا﴾(الأنعام:١١٣)، موضحًا أنه قد خلَق لَمّة الشيطان عن قصد ولحكمة بالغة. ولما كان من الوارد أن يعترض أحد ويقول: لماذا يبعث الله عباده المحبوبين لهداية الناس، ثم يسلط عليهم أعداءهم كالكلاب المسعورة؟ فأجاب الله عن ذلك وقال ﴿وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾.. أي أن ربك كافٍ لهداية الناس ولنصرة أنبيائه نصرًا معجزًا. بمعنى أنه مما لا شك فيه أن المعارضة مدعاة للاعتراض في الظاهر، ولكنها هي التي تصبح في نهاية المطاف دليلاً على أن الله تعالى هادٍ ونصير. فإذا اشتدت المعارضة ازدهرت الجماعة الإلهية أيضًا، واذا ازدادت المعارضة ازداد معها التأييد الإلهي والنصرة الربانية أيضًا. ولذلك كلما كان بعض أتباع سيدنا المسيح الموعود ﷺ يشتكي إليه باشتداد المعارضة في منطقته كان يقول له: هذا دليل على رقي جماعتكم، لأنه حيثما تكون المعارضة تزدهر جماعتنا أيضًا، لأن كثيرًا من الناس الذين لا يعرفون جماعتنا يطلعون عليها من خلال ما يقول الخصوم، فيرغبون في قراءة كتبنا شيئًا فشيئًا، فيقبلون الحق.

حضر شخص ذات مرة إلى سيدنا المسيح الموعود عليه السلام وبايع على يده. فسأله حضرته: من بلغك الدعوة؟ فقال بدون توقف: الشيخ ثناء الأمرتسري. فقال عليه السلام في حيرة: كيف؟ قال: كنت أقرأ الجريدة الأردية للشيخ الأمرتسري، وكنت ألاحظ دائمًا أنه شديد الطعن في جماعتكم. فقلت في نفسي يومًا: لم لا أرى بنفسي ما ورد في كتب هذه الجماعة؟ فبدأتُ مطالعة كتبكم، فانشرح صدري ورغبت في بيعتكم.

إذًا، فالفائدة الأولى في المعارضة أنها تؤدي إلى ازدهار الجماعة الإلهية وتتسبب في هداية الكثير من الناس. والفائدة الثانية أن الله تعالى يظهر بسبب عداء الخصوم آيات معجزة لتأييد جماعته ونصرتها. عندما تبلغ المعارضة ذروتها تجذب أدعيةُ المؤمنين وابتهالاتهم نصرة الله من السماء، فيُهلك الله تعالى بقهره أعداءهم ذوي المنعة والقوة. فمثلاً حين قام فرعون وجنوده بمطاردة بني إسرائيل ظن قبل غرقه بدقائق أنه قد نجح في قصده، حتى ظن بنو إسرائيل أيضًا أنهم هالكون، فصرخوا قائلين ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾(الشعراء:٦٢)، ولكن موسى عليه السلام الذي كان يتوكل على ربه توكلاً كاملا أجابهم وقال ﴿كَلا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾(الشعراء:٦٣).. أي سيهديني إلى مخرج من هذه الورطة الهائلة. فما هي إلا دقائق حتى وصل موسى مع قومه إلى الشاطئ الآخر من البحر، بينما أخذ فرعون وجنوده يغرقون في أمواجه.

مجمل القول إن المعارضة وسيلة كبيرة لنشر الهدى، وتؤكد كون الله تعالى هاديًا ونصيرا.